صورة :

الذى له صومعة . . .

للاستاذ راشد رستم

هذا هو صباح المعادى فى الصيف : خضرة وسكون وطير . ولست أقصد إلى المقارنة ، فالأسكندرية اليوم ، رمل وبحر « وسمك » ... كلاهما جميل ، وكلاهما وفقاً للمزاج يختلفان . وحبذا فى هذه الحياة مزاج الوفاق وتوافق المزاج .

وإنى إذ أجلس وحيداً فى هذا الصباح الهادىء اللطيف ، أذكر صاحبى هناك والدنيا حوله تفور وتصخب ، وهو هو كما أعهده قابعاً فى صومعته مفكراً راضياً ساخراً ...

وإنها للذة أن يقنع المرء نفسه بصومعة ينطوى عليها وتنطوى عليه ، فهى فى الحق نظرية عملية ، إذا استطاعها امرؤ فبشره بالفوز العظيم فى معترك الجهاد الأكبر ، إذ هى وحقيقة الحياة تسيران جنباً إلى جنب ، والمرء فيها كالقطرة فى النهر ، لها وحدتها ، ولكنها تجرى وماء النهر من المنبع إلى المصب ...

* * *

وهذا الذى يرونه فيلسوفاً ساخراً ، ما هو إلا روح هادىء قانع قابع ، لا قانط ولا ساخط ، قد عرف الأشياء وعرفته ، وجرب الحوادث وجربته ، وسار مع الأيام وسيرته ، ثم ارتفع بروحه إلى سموات التأمل والتفكير ، مصطحباً الحس والشعور ، حتى لا يضيع بين الوهم والغرور ، وقد طوف فى تلك الأرجاء مع القديم من الأحياء والجديد من الآراء ، ثم عاد وفى نفسه أن ينظر ويرى .

فماذا يرى ؟ — يرى أن يحتفظ بذاته ، منفرداً غير وحيد ، مبتعداً غير بعيد ، فتحول بينه وبين ما يريد « جاذبية » الأم الحنون — هذه الأرض التى خلق منها ، ولا أقول خلق « فيها » فقد يخلق الشىء من شىء ويوضع فى شىء ، فلا يستطيع البقاء مع الشىء الذى وضع فيه ، ويرتد إلى الشىء الذى خلق منه . وقد يكون المرء فى هذا غير فاهم ما يحصل له ، وهو إذن فى جهل ونعيم. وقد يكون فاهماً ما يحصل له ، وهو إذن فى علم وشقاء ...

* * *

وهذا آدم أبو البشر بل رمز البشر ، وقعت له الوقعتين ، فجهل الأولى وعرف الثانية . عرف أنه من التراب وإلى التراب يعود . ومن ينبه الذى يدرك ما هو فيه ، هو المعذب فى الحياة ، يقاسيها لأنه يعلم إنه لا مفر له منها . ويعانيها لأنها تعنيه ...

إذن ماذا يستطيع هذا أن يفعل غير أن ينفر ويسخر ثم يقنع ويقبع . يعيش مع نفسه وفى نفسه وإن لم يكن لنفسه ، يرجو أن يعيش وفق خطته وهواه ، وأن لا يزاحمه أحد فى « دنياه » ، وهو بعد ليس بالأنانى ، يحب نفسه ويكره سواه ، ولكنه الإنسان ، يمنع الشر عن أى أحد ، ويتمنى الخير لكل أحد ، ويرجو ألا يصيبه الشر من أحد ، حتى ولو لم ينله الخير من أحد ... هذا تفكيره ، فهل هكذا مصيره ؟

* * *

يعيش هكذا فى « دنياه » ، ممتزاً بروحه ورضاه ، ممتزلا غير منعزل ، لا يهمل كما لا يحفل برأى الناس فيه ، ولا يعنى بما ليس يعنيه ...

غير أن الأيام وقد ظن أنها كفلته وأمنته تأتى فتمرضه وتشفيه ، فيعلم مداه من اليأس والبأس والناس ، فيأنس دون أن يبتئس أو ييأس .

ثم تعود فتفقده عزيزاً غالياً ، فينتبه من تيه ، ويرى شيئاً لم يكن يرتئيه ، يحس بأن المصير ، هو غير ما كان عليه التفكير ، ويأخذه الذهول ، وكأنه يرضيه أو أنه قد يشفيه مما صار فيه ، ولكنه يحس دبيب الأسى يوقظه ، ويحركه ويدفعه ، فيمشى يتلمس فى الوجود ، الموجود والمفقود ، لا والدا ولا مولود ، يفتقد صاحبه فلا يجده ، ويذكر هواه ولا ينساه ، ويهفو ولا يلهو ، فيراه الناس كئيباً حزيناً ، ثم يراهم يحسبونه مثلهم — ساعة وكل شىء يزول ...

ساعة وكل شىء يزول ! فيعجب ثم يضطرب بل ينتفض ويرتعد ويبتعد قليلا ... ثم يعود ، فلا يراه أحد كئيباً حزيناً ، فقد خجل أن يكون مثلهم ، وهو ... هو الكئيب الحزين ... مدخل الصومعة ولكنه يسير بها فى العمعة ...

راشد رستم